

«ويل للمصلين» (الماعون 107: 4): في عد القرآن مصدرًا تاريخيًا لكتابة السيرة النبوية. الجزء الأول: التفاسير الإسلامية والسياق التاريخي للقرآن

ياسين اليحياوي*

doi:10.17879/mjiphs-2023-5020

ملخص

تركز هذه الورقة على دراسة تطور تفسير الآية الرابعة من سورة الماعون (107: 4) من تفاسير العصر القديم المتأخر إلى الوسيط. تكمن أهمية الإحالة على الآية لسببين، أولاً: جرى رصد إجماع المفسرين على وضع السورة في السياق المكّي ما عدا الآيات 4-7 التي وُضعت في السياق المدني؛ وثانياً، شكّل تفسير هذه الآية نموذجاً لقطيعة التفاسير مع السياق التاريخي للقرآن، الأمر الذي يؤدي أيضاً إلى قطيعة مع السياق التاريخي للسيرة النبوية، ومن ثم تعذر التأريخ للسيرة النبوية اعتماداً على الروايات الإسلامية. في حين أن الجدل في الدراسات القرآنية والتاريخ الإسلامي المبكر ما يزال مُحتدماً في مدى إمكان عد القرآن مصدرًا تاريخيًا لأحداث السيرة النبوية، تُجادل هذه الدراسة، أن كتابة السيرة النبوية اعتماداً على القرآن كمصدر تاريخي مُمكنة من وجهة نظر تأريخية. تتناول هذه الدراسة بجزءها الفترة المكيّة الأولى من خلال نموذج سورة الماعون، وعلاقتها كرونولوجياً بسور مكّيّة يُمكن من خلالها رصد تطور دعوة النبي محمد وبدايات التوتر مع أعيان قريش. سيُخصّص الجزء الأول لدراسة التفاسير الإسلامية والسياق التاريخي للقرآن، حيث سيتناول أولاً: سبب نزول السورة من وجهة نظر المفسرين وتطور الروايات بشأن الفئة التي نزلت فيها الآية الرابعة؛ ثانياً: التطور التاريخي لتفسير الآية الرابعة؛ وأخيراً: محاولة تحليل دواعي غياب وعي تاريخي عند المفسرين عندما يتعلق الأمر بسورة أو آيات تتناول مواضيع ذات طبيعة هوياتية، وهو ما تفترض الورقة بأنه سبب القطيعة مع السياق التاريخي للقرآن والسيرة النبوية.

كلمات مفتاحية: السيرة النبوية؛ السياق التاريخي للقرآن؛ التفسير الإسلامي؛ القطيعة

* باحث بالمعهد العالي للدراسات الإسلاميّة Zentrum für Islamische Theologie بجامعة مونستر، ألمانيا.

Woe unto those who are praying (Q 107: 4): On considering the Qur'ān a historical source for the life of Muḥammad.

Part 1: Islamic exegesis and historical context of the Qur'ān

— Yassine Yahyaoui*

Abstract

This study delves into the evolution of the interpretation of Q 107: 4, tracing its development from late antique qur'ānic exegesis to medieval exegesis. The significance of studying this passage lies in two main aspects: 1. The consensus of commentators to place Q 107 in the Meccan context, except for Q 107: 4-7, which is placed in the Medinan context; 2. The interpretation of this passage serves as an example of how qur'ānic exegesis represent a rupture with the historical context of the Qur'ān, which also leads to a rupture with the historical context of the life of the Prophet Muḥammad. While the debate in qur'ānic studies and early Islamic history continues regarding the extent to which the Qur'an can be considered a reliable source for understanding the Prophet's biography and the historical events of his life, this study argues that writing the Prophet's biography based on the Qur'ān is possible from a historical perspective, as long as the rupture caused by qur'ānic exegesis is taken into account and the narratives of the commentators are criticised on this basis. This perspective may allow for a more contextual understanding of the events mentioned in the Qur'an and their connections to the life of the Prophet Muḥammad.

Keywords: Prophetic biography; The historical context of the Qur'ān; Qur'ānic exegesis; The rupture

* Researcher at Centre for Islamic Theology at Münster University, Germany.

«كثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين أئمة النقل المغالط في حكايات الوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل، غثاً أو سميناً، لم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار». ابن خلدون⁽¹⁾

مقدمة

تُناقش هذه الدراسة أحد القضايا الأساسية المرتبطة بالتأريخ لبدايات الإسلام والسياق التاريخي للقرآن، ألا وهي مدى موثوقية المصادر الإسلامية في كتابة تاريخ بدايات الإسلام وسيرة النبي محمد في مكة. لا يُعد هذا النقاش وليد سبعينيات القرن الماضي مع المدرسة التنقيحية، بل يرتبط من جهة بطبيعة المصادر الإسلامية، إذ هناك فجوة بين المصادر والأحداث التي ترويها؛ ومن جهة ثانية بطبيعة الوعي التاريخي في فترة الإسلام المبكر، حيث أنتج العلماء المسلمون الأوائل معارفهم زمن تحول تاريخي مهم في شبه الجزيرة العربية.

الفكرة الرئيسة التي تنطلق منها هذه الدراسة أن منهجية مفسري العصر القديم المتأخر والعصر الوسيط في تعاملهم مع سور الفترة المكية -لاسيما المرحلة المبكرة- شكّل قطعة مع بدايات الإسلام وسياق الوحي، رغم ادعاء المفسرين اعتمادهم على الروايات في تحديد أسباب النزول أو في التفاسير التي أنتجوها. وسيتم التركيز أساساً على بدايات دعوة محمد بمكة وعلى السور المكية في المرحلة المبكرة، مع جعل الماعون 107: 4 نُقطة انطلاق لهذا البحث. إنها بهذا المعنى دراسة أدبية أو نقد داخلي/ نصي، يقوم بداية بتقديم دراسة نقدية للتفاسير الإسلامية، ثم في خطوة ثانية يُراوح بين السيرة والقرآن من أجل فهم السياق التاريخي للماعون 107: 4.

انتبهت الباحثة لينا سلامية لهذه القطيعة -أو الانقطاع النصي كما تُطلق عليها- التي تحضر بشكل كبير في تعامل المفسرين مع القضايا الفقهيّة⁽²⁾. حيث تستنتج سلامية، من خلال دراسة سورة محمد 47: 4، أن القطيعة بدأت مع مفسري وفقهاء العصر الوسيط من خلال عدم اعتمادهم على روايات السلف؛ تتفاعل هذه الدراسة مع أطروحة سلامية، وفي الوقت نفسه أقترح أن هذه القطيعة لا تتعلق بكسر سلطة الرواية/ التقليد التي قام بها علماء العصر الوسيط. فمن خلال دراسة الماعون 107: 4، أزعّم أن القطيعة جرت بين لحظتين تاريخيتين -لحظة تشكل جماعة المؤمنين ولحظة تشكل إسلام الإمبراطورية-، وكانت حاضرة مع مفسري العصر القديم المتأخر ثم أصبحت أكثر وضوحاً مع مفسري العصر الوسيط. يُمكن التأكيد على صوابية الأطروحتين من خلال الإشارة إلى أن

1 عبد الرحمن بن خلدون (ت. 808 هـ)، المقدمة، تحقيق: عبد السلام الشدادي (الدار البيضاء: خزنة ابن خلدون، 2005)، ج 1، ص 13-14.

2 Lena Salaymeh, *The beginnings of Islamic law: Late antique Islamic legal traditions* (Cambridge: Cambridge University Press, 2016), p. 43-83.

في عد القرآن مصدرًا تاريخيًا لكتابة السيرة النبوية . الجزء الأول

عملية القطيعة بدأت مع مفسري العصر القديم المتأخر، ثم تدرجت لتشمل باقي المواضيع الدينية والفقهية. كان هذا التدرج رهين سياق المفسر، ورهين الحاجة إلى تجاوز الروايات من أجل وضع تفسير للقرآن عكس، ولو دون وعي المفسر، الوضعية السياسية والاجتماعية للمجتمعات اللاحقة. وهكذا يُمكن لنتائج دراسة كلتا الحالتين أن تتفقا، أي أن الرواية/ التقليد لا يمثل عند المفسرين، سواء في العصر القديم المتأخر أو العصر الوسيط، نقطة الانطلاق في عملية التفسير.

ما أحاول القيام به في هذه الدراسة هو محاول اختبار فرضية «القطيعة مع السياق القرآني»، أي أنّ إجماع التفاسير الإسلامية فيما يتعلق بالماعون 107: 4، لا يُفهم فقط بكونه عدم معرفة بالسياق التاريخي للقرآن، بل بالأحرى هو نسيان مُتعمد⁽³⁾ وانقطاع عن اللحظة التأسيسية الأولى، لتعويضها بسردية جديدة هي أكثر إضفاء للمعنى على اللحظة الراهنة التي يعيشها المفسر⁽⁴⁾. ومن ثم، تُجادل الدراسة أنّ ما قامت به التفاسير الإسلامية ليس نقلًا للسياق التاريخي للقرآن أو السيرة النبوية عند عرضهم لأسباب النزول، بل هو إعادة كتابة تاريخ الإسلام المبكر تحت ضغط تأسيس الهوية الدينية وانعكاسًا للوضع الاجتماعي والسياسي للمفسرين.

3 لا أستخدم هنا النسيان كمرادف للجهل أو عدم المعرفة، بل أوظفه في هذا السياق كمقابل سلبي للذاكرة، باعتباره ماض لا يُراد تذكره ولا يُسمح بذلك. تطرّق بول ريكور لهذه الإشكالية بتفصيل، وأعتمد في هذا الصدد الإطار النظري الذي طوّره، وبهذا الشكل يُصبح النسيان -أو ما لم تذكره المصادر الإسلامية- أحد المصادر الأولية في عملية الكتابة التاريخية. بشأن النسيان كإرادة سياسية لعدم التذكر يُنظر لأهميته النص التالي لريكور: «بسبب الوظيفة التوسيطية للسردية، تُصبح إساءات استعمال الذاكرة إساءات استعمال للنسيان [...] كل سرد يحوي بالضرورة بُعدًا إنتقائيًا [...] إن أدلجة الذاكرة ممكنة بفضل التنوع الذي يعطيه عمل التصوير السردى. وتطعم استراتيجيات النسيان مباشرة على عمل التصوير هذا: يمكننا دومًا أن نقص بطريقة مُختلفة عن طريق استبعاد بعض التفاصيل، أو نقل مواقع الأهمية، أو في تصوير المشاركين في العمل بطريقة مُختلفة، وكذلك مجريات الأحداث، وبالنسبة إلى مَنْ مرّ بكل مراحل التصوير وإعادة التصوير السردى منذ تكوين الهوية الشخصية إلى الهويات الجماعية التي تتحكم في بنية علاقات انتمائنا، فإن الخطر الداهم، في نهاية المطاف، يكمن في التصرف في التاريخ المسموح به، المفروض والمُحتفى به»، يُنظر: بول ريكور، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ترجمة: جورج زيناتي (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2009)، ص 648

Paul Ricoeur, *La mémoire, l'histoire, l'oubli* (Paris: Seuil, 2000), p. 579-580.

4 عالج بسام الجمل قضية أسباب النزول والوحي في دراسة بعنوان: أسباب النزول (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2005)؛ يُنظر أيضًا قوله: «إن الأجيال الإسلامية التي أعقبت جيل الصحابة حرصت على استعادة طور مُتميّز من مسار الإسلام كان فيه الحوار بين الوحي والتاريخ قائمًا. غير أنّ هذه الاستعادة لم تنفك -وأني لها ذلك- عن المؤثرات الثقافية والمعرفية والاجتماعية التي طبعت المجتمعات التالية لمُجتمع الدعوة» (ص 230)؛ لا يتطرق بحث بسام الجمل لأثر هذه الاستعادة في تشكيل الحقائق التاريخية، ما أوكد عليه في هذه الدراسة أنّ ما قام به المفسرون الأوائل، شكّل في جزء كبير منه قطيعة مع السياق التاريخي للفترة المكية -في هذه الدراسة سأركز على الفترة المكية المبكرة- وموازة مع هذه القطيعة قام المفسرون بإنتاج حقائق تاريخية تعكس سياقهم وتُضفي عليه المعنى. على أنّ عبارة المفسرين الأوائل أو مفسري العصر القديم المتأخر، لا تعني حصرهم ضمن جماعة المفسرين كما ستشكل في العصر الوسيط، بل باعتبارهم جزءًا من النُخبة العالمية في الإسلام المبكر حيث كان المفسر ضليعًا بالفقه والحديث وغيرها من المعارف قبل أن تستقل عن بعضها البعض.

من أجل بيان هذه الإشكالية ستُقسَّم الدراسة إلى جزئين. سأقوم في الجزء الأول بدراسة التطور التاريخي لتفسير الماعون 107: 4، منذ العصر القديم المتأخر -من بداية الإسلام إلى نهاية القرن الثاني الهجري- إلى العصر الوسيط -من نهاية القرن الثاني الهجري إلى القرن السابع الهجري-. من شأن التركيز على هذه الحالة (الماعون 107: 4) أن يُوضح، ولو بشكل جزئي، الرهانات الأساسية لمفسري القرآن خلال الفترة الإسلامية المبكرة وما يليها، ومن ثم التفاعل مع أطروحة سلايمة. وعلى الرغم من الاعتماد على كتب التفسير في العصر القديم المتأخر، إلا أن هذا لا يمنع من اعتبارها مصادر في السيرة النبوية أيضاً، ذلك أن كل هذه المعارف كانت تمثل جزءاً واحداً قبل أن يستقل كل منها كنوع أدبي جديد⁽⁵⁾.

إن تأكيد هذه الفرضية سيؤدي إلى النتيجة التالية: المعرفة بسياق/ عالم المتلقين الأوائل -النبوي وجماعة المؤمنين- يتعدى الوصول إليها اعتماداً على ما أنتجه مفسرو العصر القديم المتأخر والعصر الوسيط. ومن ثم سيكون الجزء الثاني لهذه الدراسة هو مُحاول بناء السياق التاريخي لسورة الماعون، اعتماداً على المراوحة بين السيرة النبوية والقرآن كمصدرين أساسيين، مُستخدماً لذلك أطروحة تيودور نولدكه⁽⁶⁾ في الترتيب الذي اقترحه لسور الفترة المكية المبكرة مع تدعيمها بدراسة أنجليكا نويرت⁽⁷⁾ حول البنية الأدبية للسور المكية، بالإضافة إلى نقد النتائج التي توصل إليها هاريس بيركلاند⁽⁸⁾ في تفسيره لسورة الماعون بجعلها تنتمي إلى فترة مكية متأخرة؛ وعن المراوحة مع السيرة النبوية سأعتمد بالأساس على أدوات مدرسة التاريخ العالمي⁽⁹⁾ وأطروح

5 يقول فريد دونر: «يجب أن نذكر أنفسنا بأن السعي وراء المعرفة الدينية كان أكثر أهمية بكثير لحياة المجتمع الإسلامي الأوائل من دراسة التاريخ، الذي لم يكن له في ذلك اليوم مكانة كمهنة أو مجال دراسة في حد ذاته. من ناحية أخرى، كانت ترسيخ المعرفة الدينية (العلم والفقه) أساسية في حاجة المجتمع الإسلامي المبكر في تحديد المعايير الثقافية والاجتماعية والأخلاقية التي يجب أن يعيش أعضاؤها بموجبها. ويبدو أن هذه العملية قد بدأت خلال القرن الأول الهجري»، يُنظر:

Fred Donner, *Narratives of Islamic Origins: The Beginnings of Islamic Historical Writing* (Princeton: Darwin press, 1998), p. 256.

6 تيودور نولدكه، *تاريخ القرآن*، ترجمة: جورج تامر (بيروت: مؤسسة كونراد - أذاور، 2000)؛ Nöldeke Theodor, *Geschichte Des Qorāns*, Friedrich Schwally & Bergsträsser Gotthelf & Otto Pretzl (eds.) (Leipzig: Dietrich'sche Verlagsbuchhandlung, 1938).

7 Angelika Neuwirth, *Der Koran. Band 1. Frühmekkanische Suren: Poetische Prophetie. Handkommentar mit Übersetzung von Angelika Neuwirth* (Berlin: Verlag der Weltreligionen, 2011)

8 Harris Birkeland, "The Interpretation of Surah 107", *Studia Islamica*, no. 9 (1958), p. 13-29.

9 بخصوص منهجية التاريخ العالمي في دراسة تاريخ الإسلام يُنظر: Salvatore Armando (ed.), *The Wiley Blackwell History of Islam* (Hoboken, NJ: Wiley-Blackwell 2018)؛ أرماندو سلفاتوروي (محرر)، *تاريخ الإسلام*، ترجمة: أحمد محمود إبراهيم (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2022)؛ سأعتمد بشكل أكثر تحديداً على ما قدمه مارشال هودجسون حول الفترة المكية من حياة النبي محمد، يُنظر: Marshall G. S. Hodgson, *The Venture of Islam: The venture of Islam: Conscience and history in a world*

هشام جعيط⁽¹⁰⁾ حول السيرة النبوية. تكمن أهمية مثل هذه المقاربة في أنها لا تكفي فقط بتقديم كتابة جديدة للتاريخ الإسلامي المبكر، بل تسمح أيضا بالوصول إلى المعنى الأخلاقي والإنساني للقرآن⁽¹¹⁾، ذلك أن القرآن لا يتحدث إلا من خلال اللغة والمفاهيم التي كانت مُشتركة بين المتلقين الأوائل، وهذا لا يعني جعل هذا المعنى حبيس مرحلة تاريخية مضت أو ادعاء الوصول للمعنى الوحيد، بل إن إزالة غطاء التفسير عن القرآن، يسمح للمرء بأن يرى ما الذي أراد القرآن/ الوحي تغييره وإلى أي اتجاه⁽¹²⁾ دفع بهذا التغيير.

أولا. سبب نزول السورة من منظور التفاسير الإسلامية

يروم هذا الجزء من البحث دراسة اختلاف المفسرين حول مكية أو مدنية سورة الماعون، دون التطرق إلى تفسيرهم لمعنى «الصلاة» في الآية 4 وكلمة «الماعون» في الآية 7، إذ سأنتظر بالتفصيل للتطور التاريخي للتفسير في القسم اللاحق، سيجري الاختصار هنا فقط على دراسة إجماع المفسرين القائلين بمدنية الآية 4: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ على أنها خطاب مُوجه إلى المنافقين، وعلى هذا القول يكون الجزء الأخير منها (الماعون 107: 4-7) مدنيًا، في حين الجزء الأول (الماعون 107: 1-3) مكياً، وإن لم يُصرَّح به كل المفسرين. وسيجري التركيز على بدايات تشكل روايات لسبب النزول أُسندت إلى عبد الله ابن عباس (ت. 68 هـ)، وطريق انتقالها من مفسري العصر القديم المتأخر إلى مفسري العصر الوسيط. ولا شك أن لابن عباس سلطة تفسيرية مهمة بين جماعة المُفسرين، لذلك ينقل المفسر هذه الروايات من أجل تدعيم رأيه.

civilization. Volume 1: the Classical Age of Islam (Chicago: The University of Chicago Press, 1974;

مارشال هودجسون، مغامرة الإسلام: الضمير والتاريخ في حضارة عالمية. المجلد الأول. العصر الكلاسيكي للإسلام، ترجمة: أسامة غاوجي (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2021).

10 هشام جعيط، الوحي والقرآن والنبوة (بيروت: دار الطليعة، 1999)؛ هشام جعيط، تاريخية الدعوة المحمدية في مكة (بيروت: دار الطليعة، 2007).

11 يُنظر مثلا ما قاله هودجسون حول مقارنته: «القرآن لا يتحدث إلا من خلال اللغة والمفاهيم التي كان محمد وأتباعه يحوزونها لكي يتلقوا الرسالة. وقد كانت هذه اللغة والمفاهيم مقتصرة بالمجمل على ما هو موجود في التقاليد التوحيدية. لفهم أي دلالة يتحدث عنها القرآن، على المرء أن يلاحظ السياق المفترض أولا [...] ثم على المرء أن يرى ما الذي يفعله القرآن بهذا المفهوم (في أي اتجاه يدفع المفهوم). وهذا وحده ما يُمْكِن أن يوصلنا إلى معناه أخلاقيا وإنسانيا». هودجسون، ص 309 إحالة.

12 بخصوص هيرمينوطيقا القراءة السهمية للقرآن يُنظر:

Mouhanad Khorchide, "Ein theologisch-hermeneutischer Zugang zum Koran", in: Mouhanad Khorchide (ed.), Gottes Offenbarung in Menschenwort: Der Koran im Licht der Barmherzigkeit (Freiburg im Breisgau: Verlag Herder, 2018), p. 78-151.

في أقدم عمل تفسيري كامل وصل إلينا⁽¹³⁾، تفسير مقاتل بن سليمان (ت. 150 هـ)، ينقل فيه مقاتل أن «سورة الماعون مكية عددها سبع آيات»⁽¹⁴⁾، ثم يورد سببا لنزول سورة الماعون: «نزلت في العاص بن وائل السهمي، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي زوج أم هاني بنت عبد المطلب عمه النبي صلى الله عليه وسلم»⁽¹⁵⁾؛ غير أنه يُورد في تفسير الآية 4 أنها مُوجهة للمنافقين⁽¹⁶⁾، وهو ما يُوحى إلى أنّ هذه الآية يرتبط سبب نزولها بالمدينة، دون أن يُشير مقاتل لذلك، على أنّه لا يذكر مصادره، سواء تعلق الأمر بمكية السورة أو نزول الآية 4 في المنافقين.

لا نقف في التفسير اللاحقة على روايات حول أسباب النزول إلى حدود القرن الرابع الهجري، وذلك عند أبو عبد الله محمد بن أحمد بن حزم (ت. 320 هـ)⁽¹⁷⁾، ثم بعد ذلك ينقل مفسرون آخرون هذا الرأي⁽¹⁸⁾ إذ نجد الرواية أولا عند عمر بن محمد بن عبد الكافي (توفي حوالي 400 هـ) ثم عند هبة الله بن سلامة المقرئ (ت. 410 هـ)؛ وغير واضح ما إذا كانت رواية ابن حزم مصدرًا لابن عبد الكافي وهبة الله أم أنهم جميعًا يشتركون في مصدر آخر. لكن عموما، تبدو المدة بين مفسري القرن الثاني الهجري إلى مفسري القرنين الرابع والخامس الهجريين، كافية للاستفادة من روايات مُختلفة في مصادر التفسير الأولى، وهذا ما أشار إليه هبة الله نفسه، حيث ذكر أنّه اعتمد في تأليفه على كتب عدة، ويورد سند سماعها من المفسرين⁽¹⁹⁾.

13 يقول فؤاد سزكين: «ولم يصل إلينا من التفسير القرآنية التي أخذت بصورة مباشرة عن أقدم التفسير والتي ترجع إلى النصف الأول من القرن الثاني الهجري إلا بقية ضئيلة، وهي التفسير لكل من محمد بن السائل الكلبي؛ سفيان الثوري؛ معمر/ عبد الرزاق؛ مقاتل بن سليمان»، يُنظر: فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي. المجلد الأول الجزء الأول، في علوم القرآن والحديث، ترجمة: محمود فهمي حجازي (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1991)، ص 58؛

Fuat Sezgin, *Geschichte des arabischen Schrifttums. Band I, Qur'anwissenschaften, Hadit, Geschichte, Fiqh, Dogmatik, Mystik: Bis ca. 430 H* (Leiden: Brill, 1967), p. 21.

14 مقاتل بن سلمان (ت. 150 هـ)، تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق: عبد الله حمود شحاته (بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، دار إحياء التراث العربي، 2002)، ج 4، ص 869.

15 المرجع نفسه، ج 4، ص 871.

16 يقول مقاتل: «فويل للمصلين» آية. يعني المنافقين في هذه الآية»، يُنظر: المرجع نفسه.

17 أبو عبد الله محمد بن أحمد بن حزم (ت. 320 هـ)، *الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم*، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري (بيروت: دار الكتب العلمية، 1986)، ص 67-68.

18 عمر بن محمد بن عبد الكافي (توفي حوالي 400 هـ)، عدد سور القرآن وآياته وكلماته وحروفه وتلخيص مكيه من مدنيه، تحقيق: خالد حسن أبو الجود (القاهرة: مكتبة الإمام البخاري، 2010)، ص 533؛ هبة الله بن سلامة المقرئ (ت. 410 هـ)، *الناسخ والمنسوخ من كتاب الله عز وجل*، تحقيق: زهير الشاويش ومحمد كنعان (بيروت: المكتب الإسلامي، 1984)، ص 205.

19 هبة الله، ص 212-213.

وحول سورة الماعون، يورد ابن حزم الرأي التالي لسبب النزول:

«نصفها مكي ونصفها من أولها إلى قوله: ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ نزل بمكة في العاص بن وائل السهمي وإلى آخرها نزل بالمدينة في عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين وجميعها مُحْكَم»⁽²⁰⁾.

تعود أهمية رأي ابن حزم، ثم من بعده آراء ابن عبد الكافي وهبة الله، إلى كونها شكَّلت بدايات ظهور رواية⁽²¹⁾ تتحدث عن سبب نزول الجزء الأول من السورة (1-3) في مكة وجزئها الثاني (4-7) في المدينة، مع الإشارة أنَّ جميع المفسرين لم يذكروا مصادرهم وأيضاً لم يُسندوا رواية لابن عباس عن سبب النزول المتفرق⁽²²⁾.

ومع توالي أجيال المفسرين، سيُصبح الاهتمام بجمع مُختلف الروايات عن سبب النزول أكثر حضوراً. وهو الحال مع أبو إسحاق الثعلبي (ت. 427 هـ)، الذي أضاف معلومات جديدة تجعل سبب النزول يظهر في قالب قصصي. لكن مع ذلك، يبدو أن الثعلبي غير مُطلع على تلك الرواية التي ذكرها ابن حزم بشأن نزول السورة في عبد الله بن أبي⁽²³⁾، إذ يحتفظ برواية مقاتل أن سورة الماعون، وتحديداً الآية الأولى، نزلت في العاص بن وائل السهمي، وزاد عليها الكلبي أيضاً، لكنه أضاف روايات أخرى عن مقاتل وابن حيان وابن كيسان أن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة، وعن الضحاك بأن الآية نزلت في عمرو بن عائد بن عمران بن مخزوم، أو في هبيرة بن أبي وهب المخزومي، وينقل رواية عن ابن جريج أن الآية نزلت في أبي سفيان بن حرب، وجميعهم شخصيات من مكة؛ وحول أبي سفيان يُضيف معلومات جديدة، أنه «كان ينحر كل

20 محمد بن أحمد بن حزم، ص 67-68؛ يُقارن مع ما نقله هبة الله: «نزلت [أي سورة الماعون] نصفين [...] . نصفها بمكة ونصفها بالمدينة. فالذي أنزل منها بمكة ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْدُبُ بِالذِّينِ﴾ نزلت في العاص بن وائل السهمي ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْبَيْتِمْ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ إلى ههنا. ونزل باقيها في عبد الله بن أبي بن سلول المنافق: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ إلى آخرها نزلت بالمدينة»، يُنظر: هبة الله، ص 205.

21 من خلال تتبع التاريخي لهذه الرواية ليس ثمة ما يمنع من افتراض أن ابن حزم هو أول من ذكرها، وسيبتشر بعده هذا الرأي، إذ نقله عدد من المفسرين المعبرين، من ضمنهم هبة الله وابن عبد الكافي كما سبقت الإشارة إليه، وأيضاً في القرون اللاحقة علماء أمثال: ابن الجوزي وأبو حيان الأندلسي، يُنظر: جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي (ت. 597 هـ)، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي (بيروت: دار الكتاب العربي، 2001)، ج 4، ص 495؛ وأبو حيان محمد الأندلسي (ت. 745 هـ)، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل (بيروت: دار الفكر، 2010)، ج 10، ص 552.

22 في تحليل لسورة الماعون، توصل هاريس بيركلن إلى الاستنتاج نفسه، حيث يقول: «يجب الأخذ بالحسبان أن تقسيم السورة إلى جزءين لا نعرث عليه إلا حوالي 1000 م، ولم يذكر لا هبة الله ولا عمر بن محمد بن عبد الكافي مصادرهما»، يُنظر: Birkeland, p. 15.

23 أحمد أبو إسحاق الثعلبي (ت. 427 هـ)، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: أبو محمد بن عاشور ونظير الساعدي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2002)، ج 10، ص 304.

أسبوع جزورين، فأثا يتيم فسأله شيئاً ففرعه بعصاه، فأنزل الله سبحانه فيه ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ
بِالدِّينِ﴾⁽²⁴⁾. لقد تم إيعاز كل هذه الروايات إلى علماء بارزين من جيل التابعين، لهم مكانة مُعتبرة
بين جماعة المفسرين.

سنجد هذا الرأي أيضا عند علي بن أحمد الواحدي (ت. 468 هـ) تلميذ الثعلبي، حيث
ينقل بعض هذه الآراء دون ذكر مصادره، وذلك في كتاب أسباب النزول⁽²⁵⁾. غير أنه يورد في
الوسيط في تفسير القرآن المجيد رواية عن ابن عباس: «قال: عطاء، عن ابن عباس: نزلت في
رجل من المنافقين»⁽²⁶⁾. تكمن أهمية هذا النص من تفسير الواحدي في نقله لرواية فريدة عن
سبب النزول يتم إسنادها إلى الصحابي ابن عباس تُدعم القول بمدينة السورة. وفي حال عدَّ
كتاب تنوير المقباس من تفسير ابن عباس للفيروزآبادي (ت. 817 هـ) أصيلاً⁽²⁷⁾، فيمكن حينها
القول إن أقدم رواية عن سبب النزول مسنودة لابن عباس تعود للفترة المبكرة، غير أن غياب
نقل هذه الروايات عند مفسري العصر القديم المتأخر، وتأخر الاهتمام بها عند المفسرين
اللاحقين، يُرجح أن إسنادها لابن عباس اختلق في العصر الوسيط، ومع ذلك يبقى هذا الرأي
مُجرد فرضية.

سينقل ابن الجوزي (ت. 597 هـ)⁽²⁸⁾، الرواية المنسوبة إلى ابن عباس في أن السورة نزلت في
رجل من المنافقين، وسيكون من السهل التخمين بأن رأس المنافقين قد يكون هو المعني في هذه
الرواية، لذلك ينقل ابن الجوزي أيضا رواية هبة الله في أنها نزلت في عبد الله بن أبي. كما أن فخر
الدين الرازي (ت. 606 هـ)، وهو معاصر لابن الجوزي، سيتطرق لاختلاف المفسرين فيمن نزلت
فيه الآية، ويُعد هذا هو التضخم الأخير والأهم بشأن الشخصيات التي نزلت فيها السورة، حيث

24 المرجع نفسه، ج 10، ص 304.

25 علي بن أحمد الواحدي (ت. 468 هـ)، أسباب النزول، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، ط 2 (الدمام:
دار الإصلاح، 1992)، ص 465.

26 ينقل الواحدي: «قال: عطاء، عن ابن عباس: نزلت في رجل من المنافقين»، يُنظر: الواحدي، الوجيز في تفسير
الكتاب العزيز، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون (بيروت: دار الكتب العلمية، 1994)، ج 4، ص 558.

27 نظراً لأهمية نص الفيروزآبادي فقد أثبتناه هنا: «وبإسناده عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ
بِالدِّينِ﴾ ويقال يكذب بحساب يوم القيامة، وهو العاص بن وائل السهمي [...] ﴿فَوَيْلٌ﴾ شدة عذاب في النار
﴿لِلْمُصَلِّينَ﴾ للمنافقين»، يُنظر: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت. 817 هـ)، تنوير المقباس من
تفسير ابن عباس (بيروت: دار الكتب العلمية، 1992)، ص 660.

28 يقول ابن الجوزي: «وقال هبة الله المفسر: نزل نصفها بمكة في العاص بن وائل، ونصفها بالمدينة في عبد الله
بن أبي المنافق [...] قوله عز وجل: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ﴾، اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية على ستة أقوال،
أحدها أنها نزلت في رجل من المنافقين، قاله ابن عباس»، يُنظر: أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت. 597 هـ)،
زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي (بيروت: دار الكتاب العربي، 2001)، ج 4، ص 495.

يُمكن ملاحظة أن كل التفسيرات اللاحقة لم تتجاوز الصيغة التي انتشرت لسبب النزول عند مفسري القرن السادس الهجري⁽²⁹⁾، يقول الرازي:

«المسألة الثالثة: في الآية قولان، أحدهما أنها مختصة بشخص معين، وعلى هذا القول ذكروا أشخاصا، فقال ابن جريج: نزلت في أبي سفيان كان ينحر جزورين في كل أسبوع، فأتاه يتيم فسأله لحما فقرعه بعصاه، وقال مقاتل: نزلت في العاص بن وائل السهمي، وكان من صفته الجمع بين التكذيب بيوم القيامة، والإتيان بالأفعال القبيحة، وقال السدي: نزلت في الوليد بن المغيرة، وحكى الماوردي أنها نزلت في أبي جهل، وروي أنه كان وصيا لبيتم، فجاءه وهو عريان يسأله شيئا من مال نفسه، فدفعه ولم يعبا به فأيس الصبي، فقال له أكابر قريش: قل لمحمد يشفع لك، وكان غرضهم الاستهزاء ولم يعرف البيتم ذلك، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم والتمس منه ذلك، وهو عليه الصلاة والسلام ما كان يرد محتاجا فذهب معه إلى أبي جهل فرحب به وبذل المال للبيتم فعيه قريش، فقالوا: صبوت، فقال: لا والله ما صبوت، لكن رأيت عن يمينه وعن يساره حربة خفت إن لم أجهه يطعنها في، وروي عن ابن عباس أنها نزلت في منافق جمع بين البخل والمراة»⁽³⁰⁾.

ما يُمكن استنتاجه من خلال تتبع التفسيرات من العصر القديم المتأخر إلى العصر الوسيط، أنها تتطور مع الزمن، ومع كل طبقة جديدة من التفسيرات يجري إضافة روايات جديدة/ أو تفاصيل إضافية حول سياق نزول السورة وآياتها. ومع حلول القرن السادس الهجري ضُمَّت مدونة التفسير قولين لابن عباس، أولها أن الآية نزلت في العاص بن وائل السهمي وهو قرشي، مما يُشير إلى أن أوائل سورة الماعون مكية؛ وقول آخر بأنها نزلت في رجل من المنافقين، هو عبد الله بن أبي حسب رواية ابن حزم التي نقلها هبة الله المقرئ أيضا، ومن ثم تكون أواخر السورة مدنية. على أن خلو هذه الروايات المنقولة عن ابن عباس من سلسلة السند، يمنع أي فحص لبدايات تشكل

29 بعد الرازي وابن الجوزي ستكثر الروايات المنسوبة لابن عباس بمكية السورة أو مدنيتهما، ومن ضمنها ما ذكره محمد بن أحمد القرطبي (ت. 671 هـ)، مع بعض التعديلات، أهمها إيراد رواية من طريق أبي صالح عن ابن عباس فيها أن الآيات الأولى من الماعون نزلت في العاص بن وائل السهمي أي أنها مكية؛ ثم رواية عن الضحاك، وليس ابن عباس، بأنها نزلت في رجل من المنافقين. يقول القرطبي: «واختلف فيمن نزل هذا فيه، فذكر أبو صالح عن ابن عباس قال: نزلت في العاص بن وائل السهمي، وقاله الكلبي ومقاتل. وروى الضحاك عنه قال: نزلت في رجل من المنافقين. وقال السدي: نزلت في الوليد بن المغيرة. وقيل: في أبي جهل. الضحاك: في عمرو بن عائذ. قال ابن جريج: نزلت في أبي سفيان»، يُنظر: محمد بن أحمد القرطبي (ت. 671 هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط 2 (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1964)، ج 20، ص 210.

30 محمد فخر الدين الرازي (ت. 606 هـ)، التفسير الكبير (القاهرة: المطبعة البهية المصرية، 1938)، ج 32، ص

هذا التقليد/ الرواية، ومن تم صعوبة وضع تصور تقريبي حول تأريخها، إلا إذا جرى الاعتماد فقط على أول إيراد للرواية في النصوص التي وصلت إلينا.

يتكرر الأمر نفسه عند الحديث عن الروايات التي نقلها المفسرون بشأن مكية أو مدنية السورة. فأقدم نص لدينا، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، هو نص مقاتل بن سلمان، حيث ذكر فيه أن «سورة الماعون مكية عددها سبع آيات»⁽³¹⁾، وسنتظر إلى القرن الرابع الهجري لتقف على نص للمارتيدي (ت. 333 هـ) يحكي اختلاف المفسرين في سبب نزول السورة:

«اختلفوا في نزوله [الماعون 107: 1-3]، قال ابن عباس رضي الله عنه: هي مدنية، وقال مقاتل ومجاهد وجماعة: هي مكية. وجائز أن يكون أولها نزل بمكة؛ لأن الذي ذكر أنها نزلت في شأنه كان مكيًا، وهو العاصم بن وائل السهمي، مع ما أنهم هم الذين يكذبون بيوم الدين، وآخرها نزل بالمدينة؛ لأن في آخرها وصف المنافقين، وهو ما ذكر من المراءاة في الصلاة، ومنع ما ذكر»⁽³²⁾.

ستواتر هذا الرأي حول اختلاف الروايات بشأن مكية أو مدنية السورة في تفاسير العصر الوسيط، إذ نجده عند هبة الله المقرئ (ت. 410 هـ)⁽³³⁾ والماوردي (ت. 450 هـ)⁽³⁴⁾ والزمخشري (ت. 538 هـ)⁽³⁵⁾ وابن الجوزي (ت. 597 هـ)⁽³⁶⁾ والقرطبي (ت. 671 هـ)⁽³⁷⁾، وغيرهم.

لم يُشر المفسرون إلى مصادرهم في الروايات المنسوبة لابن عباس، غير أن تتبع مُختلف الروايات عنه في تفسيره للآية 4 بأنها وصف للمنافقين أو الآية 7 بأن المقصود من الماعون هو

31 مقاتل بن سلمان، ج 4، ص 869.

32 أبو منصور محمد بن محمد الماتريدي (ت. 333 هـ)، تأويلات أهل السنة: تفسير الماتريدي، تحقيق: مجدي باسلوم (بيروت: دار الكتب العلمية، 2005)، ج 10، ص 622.

33 هبة الله المقرئ، ص 205.

34 يقول الماوردي: «سورة الماعون. مكية في قول عطاء وجابر. ومدنية في قول ابن عباس وقتادة»، يُنظر: أبو الحسن علي بن محمد الماوردي (ت. 450 هـ)، النكت والعيون: تفسير الماوردي، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم (بيروت: دار الكتب العلمية، [1992])، ج 6، ص 350.

35 يقول الزمخشري: «مكية ثلاث آيات الأول، مدنية البقية، وآياتها 7»، يُنظر: محمود بن عمر الزمخشري (ت. 538 هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل، تحقيق: مصطفى حسين أحمد، ط 3 (القاهرة: دار الريان للتراث، 1987 [1947])، ج 4، ص 803.

36 «سورة الماعون، ويقال لها: سورة أرأيت. وفيها قولان، أحدهما مكية، قاله الجمهور. والثاني مدنية، روي عن ابن عباس وقتادة. وقال هبة الله المفسر: نزل نصفها بمكة في العاصم بن وائل، ونصفها بالمدينة في عبد الله بن أبي المنافق»، يُنظر: ابن الجوزي، ج 4، ص 495.

37 يقول القرطبي: «وهي مكية، في قول عطاء وجابر وأحد قولي ابن عباس. ومدنية، في قول له آخر، وهو قول قتادة وغيره. وهي سبع آيات»، يُنظر: القرطبي، ج 20، ص 210.

الزكاة، قد يكون سببا في استنتاج المفسرين أن السورة مدنية أو على الأقل الآيات 4-7. وإذا ما استثنينا هذه المعلومة فلن يكون بين أيدينا ما يُساعد في التحقق التاريخي من هذه الروايات، التي تصل أحيانا إلى حد التضارب.

ثانيا. التطور التاريخي لتفسير الآية 4: من تفاسير العصر القديم المتأخر إلى العصر الوسيط

1. تفاسير العصر القديم المتأخر

جرى التطرق في الجزء السابق إلى التطور التاريخي للروايات المُسندة لابن عباس المُتعلق بسبب النزول. في هذا الجزء سيتم التركيز تحديداً على تفسير مفسري العصر القديم المتأخر للآية 4 من سورة الماعون، ويلحق بها كذلك الآية 7، إذ أرى وفق فرضية هذا البحث أن مفهوم الصلاة والزكاة كما استقر عند المفسرين الأوائل، باعتبارهما طقسين مُحددتين للهوية الإسلامية، شكل الأساس الذي انطلق منه المفسرون في تفسير الآيتين، ومن ثم وضعهما في سياق تاريخي جديد، يُعبر عن سياق المفسر لا سياق التلقي الأول للوحي.

واعتماداً على منهجية التتبع التاريخي لآراء المفسرين، سأخذ في هذا الصدد طريقتين، الأولى هو تتبع أقدم الروايات التي وصلت إلينا بخصوص الآيتين 4 و7، أي من تفسيرات ابن عباس (ت. 68 هـ) وهي تجميع لآرائه في التفسير⁽³⁸⁾، إلى تفسير عبد الرزاق الصنعاني (ت. 211 هـ). أغلب هذه الأعمال المبكرة هي عبارة عن تجميع باحثين معاصرين لأقوال الصحابة والتابعين كما نقلها مفسرو العصر الوسيط، لذلك سأعتمد بدورني على أهم تفاسير العصر الوسيط التي اهتمت بنقل هذه الروايات، مع الاحتفاظ بالقيّد التاريخي الذي حددته، أي الاكتفاء بمرويات العصر القديم المتأخر للوقوف على تطور التفسير للصلاة والماعون الواردتين في الآية 4 و7.

تعود إذن أول المرويات التي وصلت إلينا في تفسير السورة إلى ابن عباس (ت. 68 هـ). إنّه شخصية محورية في تفسير هذه السورة، وقد شكّلت آراؤه التفسيرية والروايات التي نُسبت إليه الطريق الذي سيسير عليها المفسرون من بعده. ومنذ بدايات انتشار المرويات عن ابن عباس، سيتم المزج بين الصلاة الواردة في الآيتين 4 و5: «فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ» والماعون الواردة في الآية 7: «وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ» بأنهما الصلاة والزكاة الإسلاميتين. ففي صحيفة علي بن أبي طلحة، وهي تجميع لآراء ابن عباس:

38 اعتماداً على صحيفة علي بن أبي طلحة (ت. ~120هـ) وعمل الفيروزآبادي، وهما تجميع لآراء ابن عباس في التفسير، على أنّ هذين العملين تعرضا لنقد بشأن أصالة نسبة الآراء لابن عباس. لذلك على الرغم من الاعتماد عليهما فيما يتعلق بتطور التفاسير في العصر القديم المتأخر، إلا أننا نضع الإشكاليات حول أصالتهما بالاعتبار.

«قوله تعالى: «فيول للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون» قال: فهم المنافقون كانوا يراؤون الناس بصلاتهم إذا حضروا ويتركونها إذا غابوا»⁽³⁹⁾.

وعن تفسير ابن عباس في تنوير المقباس:

«وبإسناده عن ابن عباس [...] «فويل» شدة عذاب في النار «للمصلين» للمنافقين ثم بيّنهم فقال «الذين هم عن صلاتهم ساهون» لاهون تاركون لها «الذين هم يراؤون» بصلاتهم إذا رأوا الناس صلوا وإذا لم يروا لم يصلوا «ويمنعون الماعون» المعروف ويقال الزكاة»⁽⁴⁰⁾.

يُنقل أيضاً عن الضحّاك بن مزاحم (ت. ~120 هـ)⁽⁴¹⁾ أنّ المقصود في الماعون 107: 4-5 هم المنافقون. لا تورد التفاسير التي نقلت هذه رواية مصادر الضحّاك، غير أنّ ما أورده كتاب الطبقات⁽⁴²⁾ حول سيرة الضحّاك، من أنّه أخذ التفسير عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، مع عدم وجود رواية لسعيد بن جبيرة تعارض ما نقله الضحّاك، يُرجح أنّ هذا التفسير كان متداولاً زمن الضحّاك بنسبته لابن عباس.

ينقل أيضاً ابن جرير الطبري (ت. 310 هـ) عدداً من الروايات عن كبار علماء الحديث والتفسير من التابعين، من قبيل أبو صالح السمان (ت. 101 هـ)⁽⁴³⁾ ومُجاهد بن جبر (ت. 104 هـ)⁽⁴⁴⁾، حيث

39 عبد الله بن عباس، تفسير ابن عباس المُسمّى صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير القرآن الكريم، تحقيق: راشد عبد المنعم الرجال (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، 1991)، ص 541.

40 الفيروز آبادي، ص 660.

41 ينقل الطبري رواية عن الضحّاك: «حدّثت [الطبري] عن الحسين، قال: سمعت أبا معاذ يقول: حدثنا عبيد، قال: سمعت الضحّاك يقول في قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ يعني المنافقين»، يُنظر: محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله التركي (القاهرة: مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، 2001)، ج 24، ص 665.

42 يقول ابن سعد (ت. 230 هـ) في الطبقات: «الضحّاك لم يلتق بن عباس إنما لقي سعيد بن جبيرة بالري فأخذ عنه التفسير»، يُنظر: محمد بن سعد (ت. 230 هـ)، الطبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار صادر، 1968)، ج 6، ص 301.

43 ينقل الطبري روايات أبو صالح من ثلاث طرق: عن معاوية عن علي؛ عن علي مباشرة؛ عن معاوية عن علي عن ابن عباس، ويُرجح أنّ مصدرها جميعاً هو ابن عباس، يُنظر: الطبري، ج 24، ص 657-678.

44 ينقل الطبري روايات مجاهد إما دون ذكر مصدر مجاهد: «حدثنا ابن بشار، قال: حدثنا أبو عامر ومؤمل، قالوا: حدثنا سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ قال: هم المنافقون» (ج 24، ص 664-665)، أو بإسناده لعلي «حدثني يونس، قال: ثنا سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن علي بن أبي طالب عليه السلام في قوله: «يراءون ويمنعون الماعون» قال: يراؤون بصلاتهم» (ج 24، ص 665)؛ وبالنظر إلى وجود روايات أخرى تنقل الرأي نفسه، في سندها علي عن ابن عباس (مثلاً: ج 24، ص 665)، فمن المرجح أنّ يكون مصدر روايات مجاهد هو ابن عباس نفسه. كما أنّ عدداً من الروايات، التي تتضمن أعلى سندها مجاهد

يُسند أغلب هذه الروايات لابن عباس . ما يهمننا في هذه الروايات، أنها تتضمن قول ابن عباس⁽⁴⁵⁾ بأن مقصود الآيتين 4-5 هم المنافقون⁽⁴⁶⁾ والآية 7 هي الزكاة أو الصدقة المفروضة.

هكذا إذن نجد مقاتل بن سليمان (ت. 150 هـ) ينقل هذه الأقوال الرائجة في عصره⁽⁴⁷⁾، دون ذكر لمصادره:

«فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ» آية. يعني المنافقين في هذه الآية. ثم نعتهم، فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ آية. يعني لاهون عنها، حتى يذهب وقتها، وإن كانوا في خلال ذلك يصلونها. «الذين هم يراءون» آية، الناس في الصلاة، يقول: إذا أبصرهم الناس صلوا، يراءون الناس بذلك، ولا يريدون الله عز وجل بها. «ويمنعون الماعون» آية يعني الزكاة المفروضة⁽⁴⁸⁾.

ونظرًا لأن الآيتين 4 و7 فُسرتا بالصلاة والزكاة الإسلاميتين، فيمكن العثور على عدد من هذه الروايات في الكتابات الفقهية المبكرة؛ سأكتفي في هذا الصدد بروايات عن مالك بن أنس (ت.

عن علي -مع احتمالية أخذه هذا الرأي عن ابن عباس-، نجد عبد الله بن أبي نجيج بمثابة «مدار» تشعب عنه باقي الأسانيد، إذ يروي عنه التفسير نفسه كل من سفيان الثوري ويعقوب بن إبراهيم وشعبة بن الحجاج بن الورد وورقاء بن عمر ومعمر بن راشد؛ إذا ما أردنا تطبيق منهجية «تحليل السند والمتن» isnād-cum-matn على هذه الروايات فيمكن القول بأن بدايات ظهور هذا الرأي تعود إلى نهاية القرن الأول الهجري، أي مع مجاهد بن جبر (ت. 104هـ). بخصوص منهجية isnād-cum-matn يُنظر: هرلد موتسكي، *مناهج تحليل الأحاديث في الدراسات الغربية: عرض ونقد*، ترجمة: محمد الشهري وشذى الدركلي (بيروت: دار البشائر الإسلامية، 2019) ص 143-256، 376-408.

Harald Motzki & Nicolet Boekhoff-van der Voort & Sean W. Anthony, *Analysing Muslim Traditions: Studies in Legal, Exegetical and Maghāzī Hadīth* (Leiden: Brill, 2010); Gregor Schoeler, *Charakter und Authentie der muslimischen Überlieferung über das Leben Mohammeds* (Berlin: De Gruyter, 1996).

45 حسب الروايات التي نقلها الطبري يمكن حصر الصحابة الذين نُقل عنهم هذا التفسير في: سعد بن أبي وقاص ومعاوية وعلي وابن عباس. لكن بحكم السلطة المعرفية لابن عباس بين جماعة المفسرين، فإن أغلب تفاسير العصر الوسيط ستحتفظ بالروايات المسندة لابن عباس.

46 تضارب الروايات حول سبب النزول جعل السيوطي (ت. 911 هـ) لا يعتمد أيا منها في كتابه لباب النقول، ويكتفي بالرواية عن ابن عباس بأن الآية نزلت في المنافقين: «أخرج ابن المنذر عن طريف بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله فويل للمصلين الآية قال نزلت في المنافقين» (جلال الدين السيوطي، *لباب النقول*، تحقيق: أحمد عبد الشافي (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت. [.]، ص 216)، لكن في تفسير الجلالين يشير إلى أن الآيات 1-3 من الماعون نزلت في العاصي بن وائل أو الوليد بن المغيرة (جلال الدين السيوطي (ت. 911 هـ) وجلال الدين محمد بن أحمد المحلي (ت. 864 هـ)، *تفسير الجلالين* (القاهرة: دار الحديث، د. ت. [.]، ص 823.

47 في كتاب الطبقات يذكر ابن سعد أن مقاتل: «روى عن الضحاك بن مزاحم وعطاء وأصحاب الحديث يتقون حديثه وينكرونه»، يُنظر: ابن سعد، ج 7، ص 263.

48 مقاتل بن سلمان، ج 4، ص 869.

179 هـ) وأخرى عن محمد بن إدريس الشافعي (ت. 204 هـ)، أُحيل في الأولى على تفسير أبو بكر بن العربي (ت. 543 هـ) الذي اهتم بجمع مرويات الإمام مالك وآرائه في بعض آيات القرآن المرتبطة بالأحكام، إذ ينقل ابن العربي رواية الإمام مالك في تعليقه على الآيتين 4 و5: «قال مالك: هم المنافقون الذين يراءون بصلاتهم، يري المنافق الناس أنه يصلي طاعة وهو يصلي تقية، والفاستق أنه يصلي عبادة وهو يصلي ليقال إنه يصلي»⁽⁴⁹⁾، وعلى الآية 7: «قال مالك: هي الزكاة، والمراد بها المنافق يمنعها»⁽⁵⁰⁾. وفي رواية الشافعي أُحيل على رسالته، إذ جاء في باب الزكاة: «ويمنعون الماعون: فقال بعض أهل العلم هي الزكاة المفروضة»⁽⁵¹⁾.

ورغم أنَّ التفسير والفقهاء لم يتطورا خلال العصر القديم المتأخر كنوعين أدبيين مُستقلين، غير أن وجود هذا الرأي عند علماء اشتهروا بالفقهاء سيستتبعه أيضا شيوع هذا القول في تفسير سورة الماعون عند فقهاء العصر الوسيط، كما أنَّ إدراج سورة الماعون ضمن آيات الأحكام يؤكد أيضا أن الفقهاء فهموا الآية في غير السياق الذي نزلت فيه.

2. تفاسير العصر الوسيط

في تفسير سورة الماعون، لا يختلف وضع تفاسير العصر الوسيط عن الفترة السابقة، بل يُمكن القول أن تفاسير سورة الماعون التي انتشرت خلال العصر القديم المتأخر وبالأخص مع جيل الصحابة والتابعين، شقت طريقها إلى تفاسير العصر الوسيط. ما يُمكن ملاحظته في هذه الفترة هو ظهور آراء لبعض المفسرين يُرجحون بين الروايات المتعارضة، أو يُحاولون التوفيق بين مُختلف الروايات، لاسيما ما يتعلق بالجانب الفقهي المرتبط بالسهو في الصلاة، هذا بالإضافة إلى تضخيم في أسباب النزول - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - وإدراج عناصر جديدة تخص بعض القصص.

سأركز في هذا الجزء على تفاسير التستري (ت. 283 هـ) والطبري (ت. 310 هـ) والرازي (ت. 606 هـ)، إذ لا يبدو أن باقي التفاسير قد أضافت جديداً، إلا ما تعلق منها ببعض المسائل اللغوية والفقهيّة التي لا تُخرج الآية عن سياقها الذي وُضعت فيه مع مُفسري العصر القديم المتأخر.

لا يختلف تفسير التستري (ت. 283 هـ) عن المفسرين الأوائل في جعل السورة مرتبطة بالصلاة والزكاة، غير أنَّ أهمية الإحالة عليه، تكمن في انفراده عن باقي التفاسير السابقة واللاحقة بإدراج نص من زبور داود، يُدعّم من خلاله تفسيره للآيتين 4 و5 من الماعون:

49 أبو بكر محمد بن العربي (ت. 543 هـ)، أحكام القرآن، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط 3 (بيروت: دار الكتب العلمية، 2003)، ج 4، ص 455.

50 ابن العربي، ج 4، ص 455.

51 محمد بن إدريس الشافعي (ت. 204 هـ)، الرسالة، تحقيق: أحمد محمد شاكر ([القاهرة]: مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1938)، ص 187.

﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾، قال: هم المنافقون، غافلون عن مراعاة أوقات الصلاة ومراعاة حقوقها. وهذا وعيد شديد، إذ ليس كل من كان في صورة المطيعين واقفًا مع العابدين، كان مطيعًا مقبول العمل. وفي زبور داود عليه السلام: «قل للذين يحضرون الكنائس بأبدانهم، ويقفون العباد وقلوبهم في الدنيا: أبي يستخفون؟ أم إياي يخدعون؟»⁽⁵²⁾.

رغم ما يكتنفه هذا النص المنسوب لزبور داود من إشكالات تاريخية، سواء تعلق الأمر بمصدر التستري، وهل هو سفر الأمثال أم سفر غير قانوني، بالإضافة إلى استخدام العبارة المسيحية «كنائس» على نص ينتمي إلى السياق اليهودي؛ إلا أن توظيف التستري لرواية توراتية يمكن قراءته كمحاولة لدعم المعنى الكامن في سورة الماعون بكونها تُخاطب المنافقين. يؤكد بحث التستري عن التناص إلى أن نهاية العصر القديم المتأخر تعكس نسيان المفسرين للسياق الأول الذي وردت فيه السورة، ونسيانهم وضعية الخطاب القرآني والمخاطبين خلال مرحلة النزول. لعل نص التوراة، أمام هذا النسيان، شكل معلمًا تاريخيًا يؤكد على الفهم الجديد للسورة، ومن ثم أصبحت سورة الماعون مولدة لمعنى جديد من خلال عملية التناص هذه.

وأما الطبري، فبعد أن أورد مُختلف الروايات، سواء عن الصحابة⁽⁵³⁾ أو عن التابعين، يُبدي كعادته رأيه الخاص:

«وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب بقوله: ﴿سَاهُونَ﴾: لاهون يتغافلون عنها [...] وقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ يقول: الذين هم يرأؤون الناس بصلاتهم إذا صَلَّوْا [...] وهم المنافقون الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، يستبطنون الكفر، ويُظهرون الإسلام»⁽⁵⁴⁾.

ورغم شهرة تفسير الطبري بكونه ينقل جميع الروايات التي وصلت إليه دون جعل معيار الأصالة مانعًا من إيرادها، إلا أن تفسيره لسورة الماعون يخلو من أي رواية تضع السورة في سياقها التاريخي الأول، أي أن كل الروايات عند الطبري تربط السورة بالسياق المدني، ورغم أنه لم يُحدد شخصًا معينًا تُخاطبه السورة، سواء تعلق الأمر بكونه من كفار مكة أو منافقي المدينة، إلا أن الرأي الذي يُقدمه، بعد نقل كل هذه الروايات، يُرجح أن الطبري يضع السورة في سياق مخاطبتها للمنافقين.

52 سهل بن عبد الله التستري (ت. 283 هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد وسعد حسن محمد علي (بيروت: دار الحرم للتراث، 2004)، ص 330-331.

53 سعد بن أبي وقاص ومعاوي بن أبي سفيان وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس.

54 الطبري، ج 24، ص 663-664.

عند الرازي، وكعاداته في ذكر مسائل وأوجه عدة في التفسير، يورد مجموعة من القضايا والإشكالات، يرجع سببها حسب رأينا -دون أن يُصرح الرازي- إلى جعل السورة مدنية وأنها خطاب مُوجه إلى المنافقين. أولها استشكال الرازي اتصال الآيات 4-7 بالجزء الأول 1-3. وكجواب يرى الرازي أنَّ الجزء الأول يخص التقصير في المعاملة مع المخلوق، في حين يخص الجزء الثاني التقصير في المعاملة مع الخالق، فجاء من ثم وعيد الله بسبب اجتماع التقصيرين، وهو بذلك يُحاول تبرير عقوبة الويل في الآية 4 التي لا يراها تنسجم مع الأفعال الواردة في الآيات 5-7. ولعل نص الرازي أول تفسير يستشكل ربط هذه الآيات بالنفق، إذ يقول:

«الآية دالة على حصول التهديد العظيم بفعل ثلاثة أمور، أحدها السهو عن الصلاة، وثانيها فعل المراءاة، وثالثها منع الماعون، وكل ذلك من باب الذنوب، ولا يصير المرء به منافقاً، فلم حكم الله بمثل هذا الوعيد على فاعل هذه الأفعال [!]

غير أنَّ الرازي لم يورد هذه المسألة إلا من أجل تبرير الروايات السابقة وتدعيم رأي فقهي، لا من أجل التشكيك في صحة تفسيرها:

«قوله: «فويل للمصلين» أي فويل للمصلين من المنافقين الذين يأتون بهذه الأفعال، وعلى هذا التقدير تدل الآية على أن الكافر له مزيد عقوبة بسبب إقدامه على محظورات الشرع وتركه لواجبات الشرع، وهو يدل على صحة قول الشافعي: إن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع، وهذا الجواب هو المعتمد»⁽⁵⁵⁾.

هكذا إذن يُبرر الرازي أن عقوبة الويل لا تنسجم إلا إذا فسرت الآيات اللاحقة من سورة الماعون وفق روايات المفسرين الأوائل، أي أنَّ تلك الأفعال إنما يقوم بها المنافقون. وعلى الرغم من اشتهاار تفسير الرازي بسبر كل الأوجه التي يُمكن أن تُفسر بها السورة وإيراد مُختلف المسائل في ذلك، حتى عيب عليه في قول منسوب لابن تيمية (ت. 728 هـ) بأن تفسير الرازي فيه كل شيء إلا التفسير⁽⁵⁷⁾، غير أنه لم يورد احتمالية أن تكون السورة مكية خالصة، ومن ثم يكون خطابها مُوجهاً لأناس من مكة قبل أن تُفرض الصلاة أو الزكاة. لذلك يُمكن القول أيضاً، وبأسلوب المبالغة الذي انتقد به الرازي، أنَّ تفسير الرازي وأيضاً تفاسير العصر القديم المتأخر والعصر الوسيط، فيها كل شيء إلا وضع السورة في سياقها التاريخي، وهي من ثم قطع مع تاريخ الإسلام المبكر.

55 فخر الدين الرازي، ج 32، ص 114.

56 المرجع نفسه، ج 32، ص 304.

57 يقول صلاح الدين خليل الصفدي (ت. 764 هـ): «وقلت يوماً للشيخ الإمام العلامة قاضي القضاة أبي الحسن علي السبكي، قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية وقد ذكر تفسير الإمام [الرازي] فيه كل شيء إلا التفسير، فقال قاضي القضاة ما الأمر كذا إنما فيه مع التفسير كل شيء»، يُنظر: صلاح الدين خليل الصفدي (ت 764 هـ)، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى (بيروت: دار إحياء التراث، 2000)، ج 4، ص 179.

3. انعكاس سياق المفسر على سبب النزول

«كذلك ساغ أن يختلفوا في بعض القرآن هل هو مكّي أو مدني، وأن يعملوا في القول بذلك ضربًا من الرأي والاجتهاد». الباقلائي⁽⁵⁸⁾

إنَّ الفحص المُقدَّم لروايات أسباب النزول في الجزء الأول والثاني، سبق للمفسرين الأوائل أن اشتغلوا بمثله على العديد من السور والآيات، لمعرفة المكّي من المدني، أو أحيانًا لتمييز أوليّة النزول في الفترة نفسها. تعددت مقاصد المفسرين في الاعتناء بأسباب النزول وجمعها، وبالتأكيد لم يكن ذلك ينبع من اهتمام بالسياق التاريخي للقرآن أو محاولة لوضع ترتيب لنزول الوحي، بقدر ما كان مرتبطًا بواقع المفسر ولحاجات اجتماعية وسياسية وقانونية، يقول السيوطي (ت. 911 هـ): «ومن فوائد معرفة ذلك [المكّي والمدني]: العلم بالمتأخّر، فيكون ناسحًا أو مُخصّصًا»⁽⁵⁹⁾؛ ولفظ قريب وأكثر دلالة على موقف المفسرين من دراسة القرآن في سياقه التاريخي نقرأ عند بدر الدين محمد الزركشي (ت. 794 هـ) النص التالي: «وقد اعتنى بذلك المفسرون في كتبهم وأفردوا فيه تصانيف [...] وأخطأ من زعم أنه لا طائل تحته لجريانه مجرى التاريخ وليس كذلك بل له فوائد منها وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم»⁽⁶⁰⁾.

وقد برّر المفسرون تقديم روايات أسباب النزول بالنظر إلى أنَّ المرفوع منها إلى النبي محمد قليل⁽⁶¹⁾، لذلك رأى أبو بكر محمد الباقلائي (ت. 403 هـ) جواز إعمال الرأي

58 أبو بكر محمد الباقلائي، الانتصار للقرآن، تحقيق: محمد عصام القضاة (بيروت: دار ابن حزم، 2001)، ج 1، ص 248.

59 جلال الدين السيوطي (ت. 911 هـ)، الإتيان في علوم القرآن، تحقيق: شعيب الأرنؤوط (بيروت: مؤسسة الرسالة، 2008)، ص 31.

60 بدر الدين محمد الزركشي (ت. 794 هـ) البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، 1957)، ج 1، ص 22؛ لا يختلف موقف الزركشي من التاريخ، الذي يُمثل موقف جماعة مفسري العصر الوسيط، عن موقف شمس الدين السخاوي (ت. 902 هـ) -ممثلًا لجماعة محدثي العصر الوسيط- من التاريخ؛ ذلك أن كلا من الزركشي والسخاوي يدافعان عن التاريخ كأداة مُساعدة للحفاظ على الانتماء للجماعة، بهذا المعنى نجد الزركشي يتحدث عن الاهتمام بالسياق التاريخي للقرآن أو أسباب النزول بصيغة دفاعية مُبرزًا أنه يُساعد على معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم، ونجد السخاوي أيضًا يورد قولًا شبيهًا في دفاعه عن التاريخ من وجهة نظر المحدّثين، إذ يقول: «وفي الاصطلاح التعريف بالوقت الذي تُضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمة ووفاء وصحة وعقل وبدن ورحلة وحج وحفظ وضبط وتوثيق وتجريح»، حول السخاوي يُنظر شمس الدين السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، تحقيق: فرانز روزنتال، ترجمة صالح أحمد العلي (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1986)، ص 18.

61 يُنظر: الجمل، ص 61-62.

والاجتهاد في تحديد المكي والمدني⁽⁶²⁾. وفي أمثلة عدة كان هذا الرأي والاجتهاد تعبيراً عن معرفة ببعض حيثيات التاريخ الإسلامي المبكر، ومن ثم كانت السيرة النبوية مصدراً مهماً لهذا النقد.

من ضمن هذه الأمثلة على رفض المفسرين بعض الروايات اعتماداً على وعيهم التاريخي، اختلافهم في عد أوآخر سورة الرعد مكية أو مدنية (الرعد 13: 43)⁽⁶³⁾، إذ ينقل الطبري وغيره⁽⁶⁴⁾ أن عدداً من التابعين⁽⁶⁵⁾، اعتمدوا رواية عبد الله بن سلام (ت. 43 هـ) سببا لنزول الآية، إذ يذكر ابن سلام وهو من أحبار يهود بني قينقاع أسلم بعد قدوم النبي للمدينة، أن الآية نزلت فيه. غير أن سعيد بن جببر (ت. 95 هـ) اعترض على هذه الرواية مُحْتَجاً بالسياق التاريخي، أي بمكية السورة⁽⁶⁶⁾ وأنَّ عبد الله بن سلام أسلم في الفترة المدنية.

قد يُطرح هنا السؤال عن سبب غياب هذا الوعي التاريخي في حالة سورة الماعون، إذ لم يُنقل اعتراض المفسرين الأوائل على ادعاء نزول الآية 4 في عبد الله بن أبي أو في رجل من المنافقين أو ارتباط الآيات 4-7 بالمنافقين في المدينة. لا يسمح نطاق الورقة بالتطرق بشكل مفصل لهذه الإشكالية، غير أنَّ ما أجده مُبرراً لانتقائية المفسرين في تعاملهم مع أسباب النزول، هو ارتباط الماعون 107: 4 بتحديد هوية الجماعة المسلمة أكثر من الرعد 13: 43؛ ومن ثم، فرض ضغط الهوية على المفسرين إعادة قراءة التاريخ.

62 «وقد يعرف ذلك بغير نص الرسول [...] وكذلك الصحابة لما لم يعتقدوا أن من فرائض التابعين ومن بعدهم معرفة تفصيل جميع المكي والمدني وأنه مما يسع الجهل به، لم تتوفر الدواعي على إخبارهم به ومواصلة ذكره على أسماعهم وأخذهم معرفته. وإذا كان ذلك كذلك ساغ أن يختلفوا في بعض القرآن هل هو مكي أو مدني، وأن يعملوا في القول بذلك ضرباً من الرأي والاجتهاد»، يُنظر: الباقلاني، الانتصار، ج 1، ص 247-248؛ كما أن السيوطي تبنى رأي الباقلاني في جواز الأخذ بالرأي والاجتهاد في تحديد المكي والمدني، يُنظر: السيوطي، الإتقان، ص 32.

63 نقل الثعلبي رواية عن ابن عباس بأنَّ السورة مكية إلا آيتين 31 و 43، يُنظر: الثعلبي، ج 5، ص 267.

64 يُنظر: الطبري، ج 13، ص 582-584.

65 كمجاهد بن جبر (ت. 104 هـ) وقتادة بن دعامة (ت. 118 هـ) وسفيان الثوري (ت. 161 هـ) والليث بن سعد (ت. 175 هـ)، يُنظر: الطبري، ج 13، ص 582-584.

66 ينقل الطبري: «عن أبي بشر، قال: قلت لسعيد بن جببر: «وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ» أهو عبد الله بن سلام؟ قال: هذه السورة مكية، فكيف يكون عبد الله بن سلام»، يُنظر: الطبري، ج 13، ص 586؛ ينقل القرطبي رواية أخرى تتعارض مع رواية الطبري، إذ يؤكد أن سعيد بن جببر ممن يقولون بأن الآية نزلت في عبد الله بن سلام: «وقيل: كانت شهادتهم قاطعة لقول الخصوم، وهم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وتميم الداري والنجاشي وأصحابه، قاله قتادة وسعيد بن جببر»، يُنظر: القرطبي، ج 9، ص 335.

خلاصة

ما يُمكن إذن استخلاصه في الجزء الأول من دراسة الماعون 107: 4 أنَّ الروايات التي تناقلها المفسرون حول أسباب نزول السورة وتفسيرهم للآية الرابعة، لا تساعد في وصف حالة المُخاطبين زمن التلقي/ نزول الوحي، وهي بالتأكيد لا تُعين على تخمين ترتيب زمني للسورة يسمح بالولوج إلى السياق التاريخي للقرآن.

صحيح أن اعتناء المفسرين بأسباب النزول، يُعد أحد أهم مصادر الباحثين في الدراسات القرآنية لاقتراح ترتيب تاريخي للقرآن، لكن قد يؤدي الاكتفاء بروايات المفسرين إلى أفق مسدود، لاسيما عندما يتعلق الأمر بحدث تاريخي ليس ذا أهمية، مع هيمنة واقع المُفسر في إعادة إنتاج المعنى الوارد في السورة، كما هو الحال مع سورة الماعون.

لقد سبق لنولدكه التنبيه لذلك، حيث أشار إلى أنَّ أحد أهم مصادره في الترتيب الذي اقترحه، هو النقل التاريخي والتفسيري⁽⁶⁷⁾. لكن هاهنا، يُقيد نولدكه مدى الفائدة التي يُمكن أن تمدها التفاسير في هذا المسعى، إذا يربطها أيضا بالأحداث التاريخية ذات الأهمية البالغة، مثل ارتباط سورة الأنفال بواقعة بدر، وسورة الأحزاب بواقعة الخندق⁽⁶⁸⁾، وهي كلها أحداث وقعت في الفترة المدنية. شكّل الاهتمام بهذه الأحداث -كمعالم تاريخية- امتداداً للتقاليد العربية قبل الإسلام المرتبطة بالوعي التاريخي لدى العرب، إذ ارتبط تأريخ الماضي بالأحداث المهمة، هي «أيام العرب» قبل الإسلام، و«المغازي» في بدايات الإسلام⁽⁶⁹⁾. وحيث أن الفترة المكية لم تشهد أحداثاً تاريخية مهمة يُمكن جعلها معالم تاريخية يُؤقت بها للزمن، فإن جمعها والاشتغال الدقيق بتأريخها لم يكن على قدر كبير من الأهمية بالنسبة للمؤرخين الأوائل.

هكذا يكون مُجمل معرفتنا عن تاريخ الفترة المكية لا يتعدى إطاراً عاماً، مع شك كبير يخص التفاصيل الدقيقة. ينعكس هذا الشك على الروايات/ الأخبار المتعددة والمضطربة، التي تصل أحياناً إلى حد إثبات القول ونقيضه لصحابي أو تابعي⁽⁷⁰⁾، ولعل الروايات حول سبب نزول

67 نولدكه، ص 53.

68 المرجع نفسه.

69 يقول فؤاد سزكين: «كان للأسباب عند عرب الجاهلية وصدر الإسلام المكانة الأولى بين اهتماماتهم التاريخية [...] ولن يخُفَّ اهتمام العرب بالعصر الجاهلي مع الإسلام الذي أوجد اتجاهات جديدة في الاهتمام بالتاريخ فكثير من الصحابة المرموقين امتازوا بأنهم نسابون، وعُدَّ كثير من قدامى التابعين الذين ألفوا كتباً في المغازي والفتوح نسابين عظاماً»، يُنظر: فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي. المجلد الأول الجزء الثاني. التدوين التاريخي، ترجمة: محمود فهمي حجازي (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1991)، ص 27، 257. Sezgin, p.

70 يتوصل نولدكه بعد دراسته لأسباب النزول في الروايات الإسلامية إلى النتيجة التالية: «قدر أكبر من الشك يطال الكثير من الأحاديث المروية التي يسوقها المؤرخون والمفسرون حول مُختلف الوقائع الصغيرة، من أجل تفسير آيات مُفردة»، يُنظر: نولدكه، ص 53.

سورة الماعون أحد الأمثلة على ذلك؛ حيث خلصت الدراسة إلى أن هذه الروايات هي انعكاس للنقاشات السياسية والفقهية التي شغلت المسلمين خلال العقود التالية. ومن ثم، كانت عملية التفسير عبارة عن قطيعة مع السياق التاريخي للقرآن؛ وإعادة إنتاج للحقائق التاريخية بشكل يحجب جزءاً مهماً من سيرة النبي محمد، وهي عملية لا تُؤثر فقط على معرفتنا بالسيرة النبوية، بل تتعداه أيضاً إلى جزء كبير من القرآن المكي، الذي نكاد لا نعلم شيئاً عن سياقه التاريخي إذا ما اقتصرنا على الرواية الإسلامية.

قائمة المراجع:

- ابن الجوزي جمال الدين أبو الفرج (ت. 597 هـ). زاد المسير في علم التفسير. تحقيق: عبد الرزاق المهدي. بيروت: دار الكتاب العربي، 2001.
- ابن العربي، أبو بكر محمد (ت. 543 هـ). أحكام القرآن. تحقيق: محمد عبد القادر عطا. ط 3. بيروت: دار الكتب العلمية، 2003.
- ابن خلدون، عبد الرحمن (ت. 808 هـ). المقدمة. تحقيق: عبد السلام الشدادي. الدار البيضاء: خزنة ابن خلدون، 2005.
- ابن سعد، محمد (ت. 230 هـ). الطبقات الكبرى. تحقيق: إحسان عباس. بيروت: دار صادر، 1968.
- ابن سلمان، مقاتل (ت. 150 هـ). تفسير مقاتل بن سليمان. تحقيق: عبد الله حمود شحاته. بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، دار إحياء التراث العربي، 2002.
- ابن عباس، عبد الله (ت. 68 هـ). تفسير ابن عباس المُسمّى صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير القرآن الكريم. تحقيق: راشد عبد المنعم الرجال. بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، 1991.
- ابن عبد الكافي، عمر بن محمد. عدد سور القرآن وآياته وكلماته وحروفه وتلخيص مكيه من مدينيه. تحقيق: خالد حسن أبو الجود. القاهرة: مكتبة الإمام البخاري، 2010.
- الأندلسي أبو عبد الله محمد بن أحمد، ابن حزم (ت. 320 هـ). الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم. تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري. بيروت: دار الكتب العلمية، 1986.
- الأندلسي، أبو حيان محمد (ت. 745 هـ). البحر المحيط في التفسير. تحقيق: صدقي محمد جميل. بيروت: دار الفكر، 2010.
- الباقلاني، أبو بكر محمد. الانتصار للقرآن. تحقيق: محمد عصام القضاة. بيروت: دار ابن حزم، 2001.
- التستري، سهل بن عبد الله (ت. 283 هـ). تفسير القرآن العظيم. تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد وسعد حسن محمد علي. بيروت: دار الحرم للتراث، 2004.

في عد القرآن مصدرًا تاريخيًا لكتابة السيرة النبوية . الجزء الأول

- الثعلبي، أحمد أبو إسحاق (ت. 427 هـ). الكشف والبيان عن تفسير القرآن. تحقيق: أبو محمد بن عاشور ونظير الساعدي. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2002.
- جعيط، هشام. الوحي والقرآن والنبوة. بيروت: دار الطليعة، 1999.
- جعيط، هشام. تاريخية الدعوة المحمدية في مكة. بيروت: دار الطليعة، 2007.
- الجمال، بسام. أسباب النزول. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2005.
- الرازي، محمد فخر الدين (ت. 606 هـ). التفسير الكبير. القاهرة: المطبعة البهية المصرية، 1938.
- ريكور، بول. الذاكرة، التاريخ، النسيان. ترجمة: جورج زيناتي. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2009.
- الزركشي، بدر الدين محمد (ت. 794 هـ). البرهان في علوم القرآن. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. بيروت: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، 1957.
- الزمخشري، محمود بن عمر (ت. 538 هـ). الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. تحقيق: مصطفى حسين أحمد. ط3. القاهرة: دار الريان للتراث، 1987 [1947].
- السخاوي، شمس الدين (ت. 902 هـ). الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ. تحقيق: فرانز روزنثال. ترجمة صالح أحمد العلي. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1986.
- سزكين، فؤاد. تاريخ التراث العربي. المجلد الأول الجزء الأول. في علوم القرآن والحديث. ترجمة: محمود فهمي حجازي. الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1991.
- سزكين، فؤاد. تاريخ التراث العربي. المجلد الأول الجزء الثاني. التدوين التاريخي. ترجمة: محمود فهمي حجازي. الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1991.
- سلفاتور، أرماندو (محرر). تاريخ الإسلام. ترجمة: أحمد محمود إبراهيم. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2022.
- السيوطي، جلال الدين (ت. 911 هـ) وجلال الدين محمد بن أحمد المحلي (ت. 864 هـ). تفسير الجلالين. القاهرة: دار الحديث، [د. ت.].
- السيوطي، جلال الدين (ت. 911 هـ). الإتقان في علوم القرآن. تحقيق: شعيب الأرنؤوط. بيروت: مؤسسة الرسالة، 2008.
- السيوطي، جلال الدين (ت. 911 هـ). لباب النقول. تحقيق: أحمد عبد الشافي. بيروت: دار الكتب العلمية، [د. ت.].
- الشافعي، محمد بن إدريس (ت. 204 هـ). الرسالة. تحقيق: أحمد محمد شاكر. [القاهرة]: مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1938.
- الصفدي، صلاح الدين خليل (ت. 764 هـ). الوافي بالوفيات. تحقيق: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى. بيروت: دار إحياء التراث، 2000.

- الطبري، محمد بن جرير (ت. 310 هـ). تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. تحقيق: عبد الله التركي. القاهرة: مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، 2001.
- الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت. 817 هـ). تنوير المقباس من تفسير ابن عباس. بيروت: دار الكتب العلمية، 1992.
- القرطبي، محمد بن أحمد (ت. 671 هـ). الجامع لأحكام القرآن. تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. ط 2. القاهرة: دار الكتب المصرية، 1964.
- الماتريدي، أبو منصور محمد بن محمد (ت. 333 هـ). تأويلات أهل السنة: تفسير الماتريدي. تحقيق: مجدي باسلوم. بيروت: دار الكتب العلمية، 2005.
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد (ت. 450 هـ). النكت والعيون: تفسير الماوردي. تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم. بيروت: دار الكتب العلمية، [1992].
- المقري، هبة الله بن سلامة (ت. 410 هـ). الناسخ والمنسوخ من كتاب الله عز وجل. تحقيق: زهير الشاويش ومحمد كنعان. بيروت: المكتب الإسلامي، 1984.
- موتسكي، هرلد. مناهج تحليل الأحاديث في الدراسات الغربية: عرض ونقد. ترجمة: محمد الشهري وشذى الدرکزلي. بيروت: دار البشائر الإسلامية، 2019.
- نولدكه، تيودور. تاريخ القرآن. ترجمة: جورج تامر. بيروت: مؤسسة كونراد - أدناور، 2000.
- هودجسون، مارشال. مغامرة الإسلام: الضمير والتاريخ في حضارة عالمية. المجلد الأول. العصر الكلاسيكي للإسلام. ترجمة: أسامة غاوجي. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2021.
- الواحدي، علي بن أحمد (ت. 468 هـ). أسباب النزول. تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان. ط 2. الدمام: دار الإصلاح، 1992.
- الواحدي، علي بن أحمد (ت. 468 هـ). الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون. بيروت: دار الكتب العلمية، 1994.
- اليحاوي، ياسين. بيزنطة المتخيلة: أنثروبولوجيا تاريخية للأخيرة في الإسلام المبكر. بيروت: مركز نماء للبحوث والدراسات، 2019.

Armando, Salvatore (ed.). *The Wiley Blackwell History of Islam*. Hoboken, NJ: Wiley-Blackwell 2018.

Birkeland, Harris. "The Interpretation of Surah 107". *Studia Islamica*. no. 9 (1958), p. 13-29.

Donner, Fred. *Narratives of Islamic Origins: The Beginnings of Islamic Historical Writing*. Princeton: Darwin press, 1998.

Hodgson, G. S. Marshall. *The Venture of Islam The venture of Islam: Conscience and*

history in a world civilization. Volume 1: the Classical Age of Islam. Chicago: The University of Chicago Press, 1974.

Motzki, Harald & Nicolet Boekhoff-van der Voort & Sean W. Anthony. *Analysing Muslim Traditions: Studies in Legal, Exegetical and Maghāzī Hadīth.* Leiden: Brill, 2010.

Neuwirth, Angelika. *Der Koran. Band 1. Frühmekkanische Suren: Poetische Prophetie. Handkommentar mit Übersetzung von Angelika Neuwirth.* Berlin: Verlag der Welreligionen, 2011.

Ricoeur, Paul. *La mémoire, l'histoire, l'oubli.* Paris: Seuil, 2000.

Salaymeh, Lena. *The beginnings of Islamic law: Late antique Islamicate legal traditions.* Cambridge: Cambridge University Press, 2016.

Schoeler, Gregor. *Charakter und Authentie der muslimischen Überlieferung über das Leben Mohammeds.* Berlin: De Gruyter, 1996.

Sezgin, Fuat. *Geschichte des arabischen Schrifttums. Band I, Qur'ānwissenschaften, Hadīth, Geschichte, Fiqh, Dogmatik, Mystik: Bis ca. 430 H.* Leiden: Brill, 1967.

Theodor, Nöldeke. *Geschichte Des Qorāns.* Friedrich Schwally & Bergsträsser Gotthelf & Otto Pretzl (eds.). Leipzig: Dietrich'sche Verlagsbuchhandlung, 1938.